عملية الإبداع في الشعر عند ابن رشيق القيرواني

أ . فريدة مقلاتي ــ جامعة خنشلة

ملخص :

إن عملية الإبداع في الشعر عملية معقدة، حيث حاول معظم النقاد إبراز مجمل تصوراتهم النقدية حولها بغية إيجاد تعليل لشاعرية النص، والتفوق النوعي الذي يتميز به، وابن رشيق من النقاد المغاربة الذين حاولوا التأصيل لعملية الإبداع في الشعر، وتبيان بواعثها وأسسها بغية سبر أغوار النص الشعري والكشف عن طبيعته وسر شاعريته حيث أقر بوجود أسس فطرية ومكتسبة لا يمكن أن يخلو منها العمل الإبداعي بالإضافة إلى مجموعة من البواعث التي تساعد على ولادة العمل الفني الذي يتميز بجودة الصياغة والتأليف.

-Résumé

Le processus de la création de la poésie est une opération complexe, sachent que la majorité des critiques ont essayé de montre leurs imagination critiques a propos d'elle afin de trouves une explication a la romantique du texte et la supériorité qualitatif qui la spécifie et IBN RACHIK parmi les critiques maghrébin qui ont essayé de fondre la procédé de la création dans la poésie, et de montre ses bases pour pouvoir approfondir dans le sens du texte poétique et décortiquer sa nature et le secret de sa romantique .

مقدمة :

إن الإبداع الفني عملية معقدة؛ بل هو نشاط إنساني غامض فلا يمكن أن نرجعه فقط إلى ذوق المبدع إذ لا أثر للعوامل الخارجية فيه، بل كل قوى الإدراك الإنساني تسهم في خلقه، كما أن الواقع الخارجي بكل معطياته المادية والمعنوية له دور كبير فيه؛ أي لابد له من توافــق الذاتية والموضوعية: « فالعمل الفني يؤلف بين عناصر عقلية وعناصر حسية ومن ثم فإن الفنان يستعين بعقل إيجابي نشط وحساسية حية عميقة، وبدون التأمل الذي يعرف كيف يميز ويفرق ويتخير يعجــز

الفنان عن السيطرة على موضوعه الذي يريد أن يضمنه هذا العمل »[1].

فالإبداع الشعري عمل صعب لذلك قيل: « عمل الشعر على الحاذق به أشد من نقل الصخر...»[2]، ولكل مبدع طريقته الخاصة في بلورة عمله الفني.

مشكلة الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى إبراز أهم الأسس الفطرية والمكتسبة التي تحدث عنها ابن رشيق وعدها من الثوابت في العملية الإبداعية، وكذلك تحديد أهم الدواعي والبواعث التي تساعد المبدع في بلورة عمله الفني وإخراجه إلى النور بعد عمل شاق . ومن هنا يمكن طرح الأسئلة الآتية:

- كيف عرف ابن رشيق الإبداع؟
- ما هي العوامل التي تسهم في بلورة العمل الفني عنده ؟
- ما هي الدواعي والبواعث التي تساعد الشاعر على الإبداع والتركيز حسب ابن رشيق؟

الهدف من الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز إسهامات ابن رشيق في ميدان النقد، وكذلك إبراز موقفه من هذه العملية المعقدة التي اختلف النقاد في تفسيرها قديما وحديثا.

أهمية الدراسة:

تتجلى أهمية هذه الدراسة في إبراز دور ابن رشيق في التنظير للعملية الإبداعية، وذلك بتحديد مفهومها، وأسسها التي تحقيق الاستواء في نسيج العمل الشعري واكتمال جمالياته،ولا

---

1 - مصطفى سويف، **الأسس النفسية للإبداع** ، ط3 ، (دار المعارف، مصر ، 1969م)،ص 188.

2 - الحسن بن رشيق القيرواني، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ج1، تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد، (دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء)، ص 105.

يقبل أن يخلو العمل الشعري منها، وتحديد أهم البواعث الكامنة وراءها .

منهجية الدراسة:

اقتضت طبيعة هذه الدراسة الأسلوب الوصفي التحليلي منهجا بغية عرض آراء ابن رشيق في هذه العملية المعقدة، وذلك بالرجوع إلى كتابه العمدة الذي يعد من أمهات الكتب النقدية التي ألفت في النقد في القرن الخامس الهجري.

1- مفهوم الإبداع عند ابن رشيق:

إن ابن رشيق كغيره من النقاد تحدث في مصنفاته عن العملية الإبداعية مستندا في ذلك إلى بعض الآراء السابقة المبعثرة في الكتب النقدية، وإلى عقليته المنظمة فاستطاع نوعا ما جمعها وتنسيقها ومناقشتها وبخاصة في مصنفه العمدة.

وحاول أيضا أن يقدم تعريف للإبداع الفني، وذلك في باب المخترع والبديع، وقد ذكر ابن رشيق ثلاث مصطلحات وهي: البديع والاختراع والإبداع، وعمل على تحديد مفهوم هذه المصطلحات بغية إبراز أبعادها الوجدانية والعقلية والأدائية، فما هو الإبداع عند ابن رشيق؟

1ـ مفهوم الإبداع عند ابن رشيق:

الإبداع عنده هو :« إتيـــان الشـــــاعر بالمعنى المستظرف والذي لم تجر العادة بمثله »[3] .

نفهم من هذا التعريف أن الإبداع هو قدرة الشاعر على إنشاء المعنى أولا، والإتيان بمعنى جديد لم يسبقه إليه أحد، وإبداعه على غير مثال، والإبداع حسب رأيه خاص باللفظ، لذلك يمكن أن نعتبر الإبداع تجاوز لكل القواعد الثابتة

---

[3] – ابن رشيق، **العمدة** ، ص 265.

والقوانين الجامدة؛ أي تناول موضوع وفق قوانين جديدة تكشف جمالياته وتجاوزاته لكل ما هو مألوف[4].

أما البديع فهو « الجديد وأصله في الحبال، وذلك أن يفتل الحبل جديدا ليس من قُوَى حبل نقضت ثم فتلت فتلا آخر »[5]. يتضح من تعريفه أن البديع هو ابتداء الشيء وإحداثه على غير مثال، وكلمة البديع عنده تنصرف في الاستعمال البلاغي إلى تلك المحسنات بمختلف أنواعها.

ويرى ابن رشيق أنه لا يمكن لنا أن نعد كل جديد ومبتكر في العمل الشعري إبداعا؛ وإنما يشترط أن تقيد الجدة بملائمة السياق، ويتضح هذا من عرضه لقول أبي عون الكاتب[6]:

تُلاعِبُها كَفُّ المزاج مَحَبَّةً
وَلَهَا ويجري ذات بينهما الأنْس
فَتَزيدُ مِنْ تِيهٍ عليها كأنَّها
غريرَةُ خِدْرٍ قَدْ تَخَبَّطَهَا المَسُّ

يعلق عليه بقوله : « فلو أن في كل هذا بديع لكان مَقِيتًا بشعًا، ومن ذا يطيبُ له أن يشرب شيئا يشبه بزبد المصروع، وقد تخبطه الشيطان من المس »[7]، فالبديع هنا بمعنى الجديد المبتكر الطريف، ولكن نفهم من تعليق ابن رشيق على هذا البيت الشعري أن وجود الجديد في العمل الشعري لا يكفي لوصفه بالإبداع؛ ولكن ينبغي أن تقيد الجدة بملائمة السياق، لأن تشبيه رغوة الخمر بالرغوة التي تعلو فم المصروع شيء مقزز ومنفر ومقيت، ولا يحقق الترابط بين طرفي الصورة، إنما يحدث نوعا من الانفصام.

---

4 - ماجدة حمودة . **علاقة النقد بالإبداع الأدبي** .(منشورات وزارة الثقافة . دمشق . 1997م)، ص13.

5 - ابن رشيق، " **العمدة** "،ج 1، ص 265.

6 - المصدر نفسه ، ج1 ، ص 301.

7 - ابن رشيق، **العمدة** ، ص 301.

نلاحظ أن الدلالة العامة لكلمة البديع عند ابن رشيق تجاوزت حدود العلم الذي يعرف به وجوه تحسين الكلام لترادف المعنى العام لكلمة " الإبداع"، ولهذا اقترنت بالسبق والأولية.

أما الاختراع فقد عرفه بقوله: « ما لم يُسْبَق إليه قائلُه ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه »[8].ونفهم من تعريفه أن الاختراع هو ابتداء الشيء والسبق إليه والاشتهار به، وقد خص الاختراع بالمعنى ومثل له بقول امرئ القيس[9] :

سَمَوْتُ إليها بعدَ ما نَامَ أهْلُهَا
سُمُوَّ حَبَابِ الماء حَالاً على حال

وعلق عليه بقوله : « فإنه أول من طرق هذا المعنى وابتكره وسلم الشعراء إليه فلم ينازعه أحد إياه »[10]. والاختراع أيضا عنده يعني الخلق ويتضح هذا من قوله: «الاختراع هو خلق المعاني التي لم يسبق إليها والإتيان بما لم يكن منها قط».

كما أضاف ابن رشيق مصطلحا آخرا قريبا من هذا المعنى؛ أي الإتيان بجديد ولكن بالإقتداء وهذا المصطلح هو التوليد، وقد عرفه بقوله : « أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه، أو يزيد فيه زيادة ...، وليس باختراع لما فيه من اقتداء بغيره »[11].

---

8 – المصدر نفسه ، ص 262.

9 – امرؤ القيس، **الديوان** ، ط2، شرحه عبد الرحمن المصطاوي، (دار المعرفة، بيروت، لبنان،2004م)، ص136.

10– ابن رشيق، **العمدة**، ج1، ص 262.

11 – المصدر نفسه، ص 263.

إن التوليد حسب رأيه هو استخراج معنى جديد، ولكن النسج يكون على منوال معنى موجود، وهذا ليس باختراع، ومن صوره قول امرئ القيس[12]:

سَمَوْتُ إليها بعدَ ما نامَ أهْلُها
سُمُوَّ حَبَابِ الماءِ حَالاً على حال

وقد اعتمد عليه عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة، وقيل وضّاح اليمني في توليد معنى مليح بقوله: [13]

فاسْقُطْ علينا كَسُقوطِ النَّوى
لَيْلَةَ لا نَاهٍ ولا زَاجِرُ

وقد علق عليه بقوله : « فولد معنى مليحا اقتدى فيه بمعنى امرئ القيس دون أن يشركه في شيء من لفظه، أو يندر نحوه إلا في المحصول، وهو لطف الوصول إلى حاجته في خفية »[14].

يتضح من كل ما سبق أن المصطلحات التي تحدث عنها ابن رشيق تتداخل فيما بينها فكلها تعني الإتيان بالشيء الجديد الذي لم يسبق إليه، إلا أنه خص الإبداع باللفظ، والاختراع بالمعنى، أما التوليد فعلى الرغم من أن الشاعر يأتي فيه بجديد؛ إلا أنه يقتدي فيه بغيره وينسج على منوالهم.

2 – أسس الإبداع عند ابن رشيق :

إن قول الشعر عملية معقدة فلا يمكن أن نرجعه إلى مصدر واحد؛ أي لا يمكن أن نعده إبداعا فرديا لا دخل للعوامل الخارجية فيه؛ لأن البيئة الخارجية بكل معطياتها المادية والمعنوية لها دور كبير فيها؛ أي أن « العمل الأدبي ليس من إبداع الفرد وحده ولا من إبداع العوامل الخارجية وحدها ... إنما تسهم هذه العوامل بطريقة أو بأخرى في نشوئه، وإن كان

---

12 – امرؤ القيس، **الديوان** ، ص 136.

13 – ابن رشيق،**العمدة** ، ج1، ص 263.

14 – المصدر نفسه، ص263.

مبدأ يقوم على مستوى ذات المبدع المتفاعل مع مجمل الظروف المحيطة بهذا المبدع »[15].

نستخلص من كل هذا أن العملية الإبداعية في الشعر تسهم في بلورتها عدة عوامل خارجية، وبخاصة أن هذه الأخيرة يمكن أن تسهم في عملية تشكيل شخصية المبدع، وبذلك تساعدنا على فهم سبب نبوغه وعبقريته[16]، وأخرى فردية تتحد فيما بينها وتساعد المبدع على التعبير عن فكرته.

والسؤال الذي يمكن طرحه: ما الذي يجعل الشاعر شاعرا ؟ ولعل هذا السؤال طرحه من قبل عبد العزيز الجرجاني في قوله : « وأنت تعلم أن العرب مشتركة في اللغة واللسان وأنها سواء في المنطق والعبارة وإنما تفضل القبيلة أختها بشيء من الفصاحة، ثم تجد الرجل منها شاعرا مفلقا وابن عمه وجار جنبه ولصيق طنبه بكيا مفحما. وتجد فيها الشاعر أشعر من الشاعر ... فهل ذلك من جهة الطبع والذكاء وحدة القريحة والفطنة ؟... »[17].

إن ابن رشيق كغيره من النقاد قد تفطن إلى هذا الجانب في العملية الإبداعية، وأدرك أنه توجد منابع ومصادر تسهم في جعل الرجل مبدعا، ويتجلى هذا في حديثه عن آداب الشاعر وعمل الشعر وشحذ القريحة له، وقد تحدث عن بعض العوامل الهامة التي تسهم في جعل الرجل قادرا على الإبداع الشعري، ويمكن أن نسميها بأسس الإبداع ويمكن أن نقسمها إلى نوعين: أسس فطرية، وأخرى مكتسبة.

---

15 - رينيه ويليك و أوستن وارين، **نظرية الأدب** ، ترجمة محي الدين صبحي، ومراجعة حسام الخطيب، ط2، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، 1981م)، ص 270.

16 - عز الدين إسماعيل، **الأدب وفنونه- دراسة ونقد** ، (دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1983م)، ص 206.

17 - القاضي الجرجاني، **الوساطة بين المتنبي وخصومه**،تح: أحمد عارف الزين،(صيدا، 1331هـ)، ص 20.

أ - الأســـس الفطريـــــة :

أ - أ - الموهبـــــة الفنيـــة :

والمتمثلة في قوة الطبع التي يحظى بها الشاعر. وهي هبة ربانية فطرية خفية في ذات الفرد ولا دخل للاكتساب في وجودها، وابن رشيق يرى ضرورة توافرها لدى المبدع، ويتضح ذلك من خلال استشهاده بعبارة القاضي الجرجاني التي يصرح فيها بأن الشعر أحد علوم العرب التي يشترك فيها الطبع[18].

فالطبع عنده هو الأصل، ويتضح هذا أيضا من حديثه عن الشعر المطبوع والمصنوع ، إذ يرى أن الشعر المطبوع هو الأصل الذي وضع أولا وعليه المدار[19] ، واستشهد في هذه القضية كذلك برسالة بشر بن المعتمر الذي يرى أن الأديب أحد الرجلين: أولهما رجل يكاد يكون موهوبا فيتحدث عن موضوعه ويعبر عن معانيه بما يناسبها من الألفاظ مراعيا في ذلك موافقة الحال والمقام[20] ، وثانيهما رجل يكون أقل منزلة من الأول؛ لأن الموضوع لا يواتيه للنظرة الأولى، ولا تسمح له الطبـــــاع بذلك، فعليه أن لا يتعجل ولا يضجر، وإنما عليه أن يتركه مدة زمنية معينة ويعاوده عند نشاطه وفراغ بالـــه ويبـــــذل شيئا مـــــن الجهـــــد وحيـــــنذاك «لا يعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة »[21] ، وأما من «تمنع عليه بعد ذلك من غير حادث شغل ومن غير طول إهمال؛ فالمنزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك »[22].

---

18 - ابن رشيق، **العمدة** ،ج1، ص 122.

19 - المصدر نفسه، ص 129.

20 - المصدر نفسه، ص 213.

21 - المصدر نفسه ، ص 214.

22 - المصدر نفسه، ص 214.

يتضح من هذا القول أن الذي لا طبع له عليه أن يتحول عن هذه الصناعة إلى صناعات أخرى يشتهيها ويحبها. إن ابن رشيق يقر بدور الطبع أو الموهبة في العملية الشعرية بل جعله الوميض الذي يقود الشاعر إلى الإبداع، فهو يساعد المبدع على تحقيق الاستواء في نسيج عمله الشعري واكتمال جمالياته.

أما التكلف إذا كثر في العمل الشعري يصبح عيبا، ولكن هذا لا يعني أن ابن رشيق يعتبر العملية الإبداعية غير واعية؛ أي القريحة وحدها التي تتحكم فيها وتملي على المبدع ما يكتب، بل يعدها عملية واعية ويتضح ذلك من كلامه عن الطائي، فيقول : « إنما حبيب كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها، ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البنية... »[23].

وأيضا قوله:« ولا يكون الشاعر حاذقا مجودا حتى يتفقد شعره، ويعيد فيه نظره فيسقط رديه ويثبت جيده ويكون سمحا بالركيك منه، مطرحا له راغبا عنه فإن بيتا جيدا يقاوم ألفي رديء »[24].

يتضح من كلامه أنه لابد من إعمال العقل في العملية الإبداعية فلا يكتب كل ما تمليه عليه قريحته بل يستعمل عقله في الاهتداء إلى عناصر النص، وتحقيق التأليف بينها وتنسيقها وتحقيق التلاؤم بين بعضها البعض؛ ليكون عمله الإبداعي خاليا من الاضطراب وسوء التأليف.

فالعقل هو وحده القادر على تحقيق الائتلاف بين عناصر الخطاب الشعري، والتمييز بين الردئ والجيد، وبذلك تحقيق الجودة في العمل الإبداعي[25].

---

23 – ابن رشيق، **العمدة** ، ج1 ، ص 133.

24 – المصدر نفسه، ص 200.

25 – قدامه بن جعفر، **نقد الشعر** ، تح: عبد المنعم خفاجي، (دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، دت)، ص 65.

وعلى الرغم من هذا التصريح إلا أن الشاعر عليه « أن يترك للطبع مجالا يتسع فيه »[26]. فالطبع حسب رأي ابن رشيق يزود صاحبه بقدرة كبيرة تمكنه من القول وتعينه على التأليف وتحفظ خطابه الشعري من الاضطراب والخلل ويتجلى هذا في حديثه عن بشار بن برد، يقول : « تنشد أقصر شعره عروضا، وألينه كلاما فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع ... »[27]

إن الطبع القوي والجيد يعين المبدع على الاهتداء إلى عناصر الخطاب الشعري، وحسن التأليف بينها وتنسيقها، واختلاف المبدعين في هذه الناحية تابع لاختلافهم في الطبع فأقواهم طبعا أصحهم تأليفا وجودة، كما أنه يتحكم في توجيه المبدع إلى النظم أو النثر، وإليه يعود تفوقه في غرض دون الآخر[28].

ونستخلص من كل ما سبق أن ابن رشيق يعتبر الطبع كعنصر أساسي وثابت في العملية الإبداعية، ولا يقبل أن يخلو العمل الشعري منه؛ لأن عدم وجوده يؤدي إلى خلو العمل الإبداعي من أسباب الجمال والتميز

أ – ب – الإدراك الحسي :

إن ابن رشيق لم يتحدث عن هذا الجانب بشكل واضح وصريح ولكن يمكن أن نستخلص ذلك من بعض أقواله، وتعليقاته التي أوردها في كتاب العمدة.

فهو يرى أن الشاعر له علاقة بالمحيط الخارجي الذي يعيش فيه، وهذا المحيط يتصل به عن طريق الحواس التي يولد وهو مزود بها، وهذه الحواس تعد عاملا رئيسيا في انفعاله

---

26 – ابن رشيق، **العمدة**، ج 1 ، ص 131.

27 – المصدر نفسه ، ص 131.

28 – الجاحظ، **البيان والتبيين** ، ج1، تح: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دت). ص 208-209.

واحتكاكه بالعالم الحي الذي له أهمية في العملية الإبداعية، وبخاصة أن هناك من يرى أن الحواس لها دور فعال في اكتساب المعرفة، فهي التي تعلم الإنسان، فلو لم يكن له حواس لما أمكنه أن يتعلم شيئا؛ لأن ما لا تدركه الحواس لا تتخيله الأوهام، فالحواس لها أهمية كبرى في عملية الإبداع، فالإنسان إذا فقد حاسة من الحواس يتعذر عليه تخيل المحسوسات فمثلا كل إنسان أو حيوان فَقَدَ حاسة البصر لا يمكنه أن يتخيل الألوان، وإذا فقد حاسة السمع لا يمكن أن يتخيل الأصوات، ولا يتوهمها؛ لأن التخيل للأشياء تابع للإدراك الحسي[29].

ويتضح من هذا أن المخيلة من الصعب عليها أن تقوم بوظيفتها الإبداعية دون الاستناد والاعتماد على الصور التي تقدمها الحواس الخارجية، فالمبدع أثناء الإبداع يسترجع من ذاكرته كل الصور، والأصوات التي نقلت إليه بواسطة الحواس فهناك قوة إدراكية تساعده على استرجاع ما تلقاه سابقا من العالم الخارجي عن طريق الحواس، وابن رشيق قد أدراك أهمية هذه الحواس في العملية الشعرية، ويتضح ذلك في سياق حديثه عن موضوع الوصف يقول : « وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا للسامع»[30].

يتضح من هذا النص أنه يلح على مدركات حاسة البصر، وبخاصة وأن هناك من يقدم البصر على باقي الحواس، ويضيف أيضا بقوله : « وصفة الإنسان ما رأى يكون لا شك أصوب من صفته ما لم ير، وتشبيهه ما عاين بما عاين أفضل من تشبيه ما أبصر بما لـــم يبصر»[31].

---

29 - أحمد بن عبد الله، **كتاب إخوان الصفا وخلان الوفا**، ج2، (مطبعة نخبة الأخبار ، بهنيدي بازار 1305هـ)، ص 265- 266- 267- 268.

30 - ابن رشيق، **العمدة**، ج2، ص 294.

31- المصدر نفسه، ص 236.

إن الحواس حسب ابن رشيق لها مكانة خاصة في عملية الإبداع الشعري ، فما تقع عليه الحواس أوضح مما لا تقع عليه الحواس؛ لذلك ربط القدماء جودة الصورة في العمل الشعري بإخراج الأغمض إلى الأوضح. يقول ابن رشيق في شأن الاستعارة والتشبيه أنهما « يخرجان الأغمض إلى الأوضح ويقربان البعيد... »[32].

ويرى أيضا أن الشاعر عليه أن يبتعد عن وصف الموضوعات التي لا يعرفها عيانا، ويتضح هذا عندما عاب على أبي نواس وصفه للأسد حيث أخطأ عندما جعل عينيه بارزتين، ويرى أنه من الأفضل أن يصفهما كما هما في الواقع ، يقول : « ألا ترى إلى أبي نواس وهو مقدم في المحدثين لمَّا وصف الأسد وليس من معارفه ولعله ما شاهده قط، إلا مرة في العمر إن كان شاهده دخل عليه الوهم فجعل عينيه بارزتين وشبههما بعيون المخنوق، وقام عنده أن هذا أشنع وأشبه بشتامة وجه الأسد »[33].

يتضح من كل ما سبق أن ابن رشيق يقر بأن الحواس لها دور فعال في العملية الشعرية فهي تساعد المبدع على إصابة الحقيقة أو الاقتراب منها، لذلك فالحواس لها أهمية كبرى في الإبداع الشعري بصفة خاصة والأدبي بصفة عامة، وهي أسس فطرية يولد الإنسان وهو مزود بها.

ب- الأسس المكتسبة :

لقد أقر ابن رشيق بأهمية الطبع في العملية الإبداعية؛ ولكنه يرى ضرورة تقويمه؛ لأن الشاعر « إذا كان مطبوعا لا علم له، ولا رواية ضل واهتدى من حيث لا يعلم، وربما طلب

---

32 - ابن رشيق،**العمدة** ، ج1، 287.

33 - ابن رشيق، **العمدة** ، ج2، ص 240.

المعنى فلم يصل إليه، وهو ماثل بين يديه لضعف آليته كالمقعد يجد في نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة»[34].

يتضح من هذا النص أن ابن رشيق أدرك أن الطبع وحده غير كاف لنظم الشعر بل هناك عوامل أخرى تسهم في بلورة هذا الإبداع الشعري وإخراجه إلى النور، ويفهم من كلامه أن حذق المبدع لا يمكن أن يتحقق بدون هذه العوامل.

وعلى هذا الأساس فإن ابن رشيق يتفق مع جل النقاد القدماء الذين تحدثوا عن آليات الإبداع، وأقروا أن الإبداع الشعري لا يستقيم أمره إلا بأسس بعضها فطري وبعضها الآخر مكتسب، والأسس المكتسبة عند ابن رشيق تتمثل في الرواية والعلم والثقافة والدربة، ومتى اجتمعت هذه الأدوات استطاع الشاعر أن يبلغ مرتبة الإجادة في الفن الشعري[35].

إن ابن رشيق قدم الرواية في العمل الإبداعي الشعري لأنها تعد العصب فيه، فهي بمثابة المحك للطبع؛ لأن رواية الأشعار تقوي الطبع وتوجهه، وتطلعه على مسالك الشعراء ومذاهبهم وتصرفهم في الكلام، فيقتدي بمنهاجهم ويسلك طريقهم حتى تستقيم موهبته، وقديما جعلت الرواية شرطا من شروط الفحولة.

وتعد الرواية مقياسا يُعتمد عليه في تفضيل شاعر على آخر، ويتضح ذلك من قول ابن رشيق : « فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشعر، ومعرفة الأخبار والتلمذة بمن فوقه من الشعراء فيقولون : فلان شاعر راوية، يريدون أنه إذا كان راوية عرف المقاصد وسهل

34 - المصدر نفسه، ج1، ص 197.
35 - المصدر نفسه، ص 121.

عليه مأخذ الكلام ولم يضق به المذهب، وإذا كان مطبوعا لا علم له ولا رواية ضل »[36].

إن الرواية حسب هذا القول هي المصباح الذي ينير الدرب للمبدع، ويسهل عليه عملية الإبداع، ويدعم أيضا رأيه يقول الأصمعي : « لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي أشعار العرب ويسمع الأخبار ويعرف المعانـــي، وتدور في مسامعـــه الألفاظ »[37].

نستشف من كلام ابن رشيق أن رواية الشعر، والأخبار من أوثق آلات الشاعر فهي تمثل مرحلة مهمة في حياته، حيث يتم من خلالها شحذ طبعه، وتهذيبه وتوجيهه. فقد كان الفرزدق – على فضله في هذه الصناعة – يروي للحطيئة كثيرا، وأيضا الحطيئة كان يروي لزهير وكان زهير راوية لأوس بن حجر ...[38].

يتضح من تصريح ابن رشيق أن فحول الشعراء قد لزموا في حياتهم شعراء آخرين، وأخذوا عنهم وحفظوا شعرهم ورووه، وقد أسهم ذلك في حذقهم وإتقانهم للصناعة. فالرواية مهمة جدا في حياة الشاعر، فإذا تخلى عنها يكون إبداعه الشعري ناقصا لافتقاره إلى لخبرة الجمالية التي تبصره بمسالك الإبداع ودروبه، وتسهل عليه القول في الموضوعات التي يؤهله لها طبعه.

كما نصح ابن رشيق المبدعين أيضا برواية أشعار المولدين لما فيها من حلاوة اللفظ، وقرب المأخذ وإشارات الملح ووجوه البديع الذي مثله في شعر المتقدمين قليـــل،

36 – ابن رشيق، **العمدة**، ج1 ، ص 197

37 – المصدر نفسه ، ص197.

38 – المصدر نفسه ، ص 198.

فرواية شعر المتقدم يساعد المبدع على اكتساب الفصاحة، ورواية شعر المتأخر يكتسب الحلاوة وبذلك يشتد عوده[39].

يتضح لنا مما سبق أن ابن رشيق يشترط في المبدع كثرة الرواية وتنوعها، فهي تسهم في تأصيل الطبع وتقويته في العملية الشعرية. والرواية حسبه وحدها لا تكفي لتكوين المبدع؛ بل لابد من العلم والثقافة، فالشاعر عنده مطالب بالإحاطة بكل علم من نحو وفقه وحساب وخبر وفريضة ومعرفة النسب وأيام العرب وحكمها وأمثالها؛ أي الإلمام بالمعارف على اختلاف أنواعها[40].

يتضح من هذا أن ابن رشيق ينح على إطار ثقافي ذي طابع موسوعي، فهو لم يطالب المبدع بحفظ الشعر وروايته ورواية الأخبار فقط ؛ إنما عليه أيضا أن يستوعب ثقافة العصر في شمولها وتنوعها إضافة إلى الموروث الأدبي القديم، وبناء على ذلك يصبح الشاعر مأخوذا بكل علم، وهذا ما أشار إليه الجاحظ وابن قتيبة من قبل.

إن ابن رشيق يحبذ أن يزاوج الشاعر بين الثقافة القديمة والثقافة الحديثة؛ أي عليه أن يحيط بكل معارف العرب القديمة وكذلك كل ما يخص شعر المولدين.

وإذا كان الطبع والرواية والثقافة شروط لا بد أن تتوفر في الشعر، فإن الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه، وهذا ما أقر به ابن رشيق حيث يرى أن الطبع وحده لا يكفي، ولا الرواية ولا العلم؛ إنما يجب أن يدعم كل هذا بالدربة والمران، ويتضح هذا من خلال استشهاده برأي القاضي الجرجاني في هذه القضية[41]؛ لأن المبدع في أول مراحل تعلمه لا يمكن أن يفرض نفسه في ميدان الإبداع، ويحقق نجاحا مهما

---

39 - المصدر نفسه ، ج1 ، ص 198.

40 - المصدر نفسه ، ص 196-167.

41 - ابن رشيق، **العمدة** ، ج1، ص 122.

أوتي من ثقافة إذ لابد له من التمرن على الإبداع، ومحاكاة الأعمال الفنية ذات الجودة العالية، فأحيانا يعارضها، وأحيانا ينسج على منوالها حتى يصنع لنفسه اتجاهه الفني الذي من خلاله يبرز ملامح شخصيته المتفردة، ومقدرته الإبداعية.

ونستشف من كل ما سبق أن ابن رشيق يقر بضرورة رواية الشاعر لأشعار وأخبار السابقين حتى يطلع على مذاهبهم ومسالكهم في الشعر ويتسنى له صنع منهجه الفني. كما جعل ثقافة المتلقين، وعاداتهم ومراتبهم الاجتماعية جزءا من ثقافة المبدع لكي يتمكن من تحقيق التجاوب بين نصه والسامع، فمراعاة الظروف المحيطة بالمتلقي، وثقافته وعاداته أمر لابد منه، وكل هذا من أجل تحقيق مبـــدأ الإفهـــام والتأثير، وبطبيعة الحال لا يتحقق هذا إلا بثقافة شاملة وعميقة تضاف إلى ثقافته الأدبية واللغوية، وبهذا فإن الثقافة تعد من الأسس الضرورية التي لابد منها في العملية الإبداعية؛ ولكن الشاعر حسب ابن رشيق إذا لم يتمكن من حسن استخدام وتنظيم وترتيب علمه وثقافته لا يأتي بثمار جيدة في مجال الإبداع الشعري، وهذا التنظيم والترتيب لا يتأتى له إلا بالدربة فهي مرحلة مهمة في حياة الشاعر، فهذه الآليات المكتسبة أمر ضروري في حياة المبدع.

ونفهم من كل ما تحدث عنه ابن رشيق أن الشاعر لا يمكن أن يسمى شاعرا إذا لم يتوفر لديه فطريا الطبع الشعري؛ لأن هذا الفن يصدر عن ميول نفسية ودوافع ذاتية، ولا بد له بعد ذلك من اكتساب العلم والممارسة والتجربة وإعادة النظر في عمله الشعري حتى يحقق الإجادة في خطابه الشعري، والصنعة الغالبة على شعر العبيد تبين مدى تضافر الأسس

الفطرية والمكتسبة حتى جاءت صوره أكثر عمقا وأجمع لعناصر الصورة المتباعدة[42].

3 - بواعث الإبداع عند ابن رشيق :

إن المبدع حسب ابن رشيق إذا توفرت لديه أسس الإبداع منها الفطرية المتمثلة في الآليات التي يولد وهو مزود بها والأسس المكتسبة والمتمثلة في الآليات التي يكتسبها من المحيط الخارجي يستطيع حينئذ أن يمارس عمله الشعري، ولكن الشعر لا يفيض فجأة، كما أنه لا ينبعث من فراغ؛ بل لابد له من بواعث تثيره وتحركه، وتدفع الينبوع الكامن في أعماق الشاعر إلى التدفق والعطاء.

وقد تفطن ابن رشيق إلى هذه القضية، وأقر بوجود بواعث ودواع تساعد الشاعر على الإبداع والتركيز، ومن خلال النصوص الواردة في العمدة نستطيع القول أن ابن رشيق تحدث عن بواعث متنوعة منها بواعث نفسية، وبواعث مكانية وبواعث مادية وغيرها من البواعث التي تعد بمثابة الحافز الذي يدغدغ عواطف الشاعر ويدفعه إلى التعبير عما يختلج في صدره ، وهذه البواعث تختلف من شاعر إلى آخر، ويتضح هذا من قول ابن رشيق : « إن للناس ... ضروبا مختلفة يستدعون بها الشعر، فتشحذ القرائح وتنبه الخواطر وتلين عريكة الكلام وتسهل طريق المعنى، كل امرئ على تركيب طبعه واطراد عادته »[43]. وقد تحدث ابن رشيق عن هذه البواعث وذلك بإيراد جملة من آراء النقاد السابقين له فكأنما يعبر بذلك عن رأيه الخاص في هذه القضية.

---

42 - زكريا صيام، **دراسة في الشعر الجاهلي**، ط2، (ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1993م)، 422.

43 - ابن رشيق، **العمدة** ،ج1، ص 205.

أ – البواعث النفسيـــة :

إن للشعر بواعث داخلية لا يمكن أن يصدر بدونها ، وهي بمثابة استعدادات نفسية ، وتتمثل في العواطف لمختلفة التي تعتبر تنظيما وجدانيا مركبا من عدة استعدادات انفعالية[44] يمكنها أن تسهم في بلورة العمل الشعري وإخراجه إلى النور.

ومن العواطف التي يمكن أن تسهم في فتق مواهب المبدع حسب ابن رشيق عواطف الغضب والرهبة، والرغبة، وفي ذلك يقول : « ...فمن الرغبة يكون المدح والشكر ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد، والعتاب الموجع »[45].

إن للبواعث النفسية دور كبير في العملية الشعرية، وبخاصة أن الشعر فيض تلقائي لمشاعر قوية يتخذ الشاعر أصوله من العواطف الداخلية، وهذه العواطف تحدث عنها من قبل ابن قتيبة حين قال : « وللشعر دواع تحثُ البطيء وتبعث المتكلف ومنها الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب ومنها الغضب »[46].

ويتبين من هذا أن التوترات النفسية تدفع الشاعر إلى نظم الشعر ، ونجد هذا عند أكثر من شاعر، فدعبل بن علي الخزاعي يقول : « من أراد المديح فبالرغبة، ومن أراد الهجاء فبالبغضاء ومن أراد التشبيب فبالشوق، والعشق، ومن أراد المعاتبة فبالاستبطاء »[47].

---

44 – شكري عزيز الماضي، **محاضرات في نظرية الأدب** ، (جامعة قسنطينة، 1984م)، ص 116.

45 – ابن رشيق، **العمدة** ، ج1، ص 120.

46 – ابن قتيبة، **الشعر والشعراء** ، ج1، ص 78.

47 – ابن رشيق، **العمدة**، ج1، ص 122.

ويتضح من هذه الآراء التي أوردها ابن رشيق أن الحالة النفسية للشاعر مهمة جدا في لعملية الإبداعية، لذلك قبل بأن النتاج الأدبي وثيقة نفسية لدراسة الفنان وفهمه فضلا عن اتخاذ شخصيته كوسيلة لفهم نتاجه وتفسيره ونقده، ويمكن القول أن المبدع كثير الانفعالات ؛ أي أن حياته زاخرة بأنواع شتى من الصراعات لا يحسن التغلب عليها إلا من خلال التعبير الفني .

ب – البواعث المكانية :

إن طبيعة المكان لها دور فعال في حياة المبدع، فكل مبدع له شخصية متميزة قد يحبذ أشياء وأماكن لا يحبذها مبدع آخر، لذلك نجد كل مبدع يختار المكان الذي يراه مناسبا له ويوفر له الراحة النفسية، ويساعده على تفجير طاقته الإبداعية، وقد أشار ابن رشيق إلى هذا الجانب، وتحدث عن بعض الشعراء والأماكن التي يحبذونها والتي من شأنها أن تحفزهم على القول الشعري، ومنهم كُثير عزة الذي سئل: «كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر؟ قال: أطوف في الرباع المحيلةِ والرياض المُعْشِبة فيسهل علي أرْصَنُه، ويسرع إلي أحسنه »[48]. وقيل أيضا أن الفرزدق إذا صعب عليه قول الشعر يركب الناقة ويطوف منفردا في شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخَرِبة الخالية[49]. وحكي أيضا عن الأصمعي أنه قال : « ما استدعي شارد بمثل الماء الجاري ... والمكان الخالي »[50].

لقد أراد ابن رشيق من خلال هذه النصوص أن يبين أن للمبدعين ضروبا مختلفة يستدعون بها الشعر، وبخاصة إذا

48 – المصدر نفسه ، ص 206..
49 –المصدر نفسه، ص 207.
50 – المصدر نفسه ، ص 206.

نعسر عليهم القول، ولكل امرئ تركيبته الخاصة وطبعه المميز لذلك فنوعية المكان تختلف من شاعر لآخر.

يتضح من كل ما سبق أن ابن رشيق ربط بين المكان والقدرة على الإبداع فرأى أن المكان يساعد ويدفع الشاعر على قول الشعر، فتحدث عن تجربة الإبداع والخلق الفني عند أكثر من شاعر، فنوعية المكان عنده تسهم في تصفية الذهن والخواطر، ويتضح هذا من قوله :« وحدثني بعض أصحابنا من أهل المهدية وقد مررنا بموضع بها يعرف بالكدية هو أشرفها أرضا وهواءا قال : جئت هذا الموضع مرة فإذا عبد الكريم على سطح برج هنالك ... فقلت : أبا محمد قال : نعم، قلت : ما تصنع ههنا ؟ قال : ألقح خاطري وأجلو ناظري، قلت : فهل نتج لك شيء؟ قال : ما تقر به عيني وعينك ... وأنشدني شعرا يدخل مسام القلوب رقة ».(51) المكان حسب ابن رشيق يؤثر على نفسية الشاعر ويسهم في إخراج إبداعه في أبهى صورة.

جـ - البواعث الزمانية :

يرى ابن رشيق أن كل شاعر يحبذ زمنا معينا يفجر فيه طاقاته الإبداعية، وقد أورد في هذا المجال قولا لابن قتيبة يقول : « وللشاعر أوقات يسرع فيها أتِيُّهُ، ويسمح فيها أبِيُّهُ منها أول الليل قبل أن تغشى الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة في الحبس والمسير ».(52)

ونستشف من هذا النص أن لكل شاعر له زمنا معينا يحفزه على قول الشعر، لذلك تختلف أشعار الشاعر. كما أورد ابن رشيق أيضا رأى بشر بن المعتمر الذي هو الآخر تحدث عن أحسن وقت للإبداع، يقول : « خُذ من نفسك ساعة فراغك

---

51 - ابن رشيق، **العمدة**، ج1، ص 206-207.

52 - المصدر نفسه، ص 208.

وفراغ بالك، وإجابتها إياك فإن قلبك تلك الساعة أكرم جوهرا وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطـــأ وأجلب لكل عين وعزة من لفظ شريـــف ومعنى بديع ... ».[53]

كما أورد أيضا وصية أبي تمام للبحتري التي قال فيها : « يا أبا عبـــادة تخيـــر الأوقـات، وأنت قليل الهموم صفر من الغموم، واعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم ... »[54]. كما روي عن جرير أنه إذا أراد أن يؤبد قصيدة صنعها ليلا يشعل سراجه ويعتزل.[55]

فالزمن حسب ابن رشيق مهم في العملية الإبداعية فلكل شاعر زمنا خاصا به يحرك مواهبه ويحفزها على الإبداع الشعري، وغيرها من البواعث التي من شأنها أن تساعد الشاعر وتحفزه على قول الشعر؛ ولكنها تختلف من شاعر لآخر فكل شاعر له مسوغات تقوده لقول الشعر فقد كان أبو نواس يستعين على قول الشعر بالشـــراب[56]، وبخاصة أنه قيـــل « أن الطعام الطيب والشراب الطيب وسماع الغناء مما يرق الطبع ويصفي المزاج ويعين على قول الشعر ».[57]وهناك من ذهب إلى القول أن الخلوة تعين على قول الشعر، ويتضح هذا من القول الذي أورده ابن رشيق ومفاده أن «من لم يأت

53 - المصدر نفسه ، ص 212.
54 - المصدر نفسه ، ج2، ص 114.
55 - المصدر نفسه، ج1، ص 207
56 - ابن رشيق، **العمدة** ، ج 1، ص207.
57 - المصدر نفسه، ص 211.

شعره من الوحدة فليس بشاعر، قالوا : يريد الخلوة ... »[58].

وبعد أن ذكر ابن رشيق مختلف الآراء التي تحدثت عن أهم دوافع الشعر، يقدم لنا رأيه في هذه القضية بقوله : « ومما يجمع الفكرة من طريق الفلسفة استلقاء الرجل على ظهره وعلى كل حال فليس يفتح مُقْفَلَ بحار الخواطر مثل مباكرة العمل بالأسحار عند هبوب النوم لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حسُّها في أسباب اللهو أو المعيشة أو غير ذلك مما يعينها وإذ هي مستريحة جديدة كأنما أنشئت نشأة أخرى؛ ولأن السَّحَر ألطف هواء، ... وأعدل ميزانا بين الليل والنهار، وإنما لم يكن العشيُّ كالسَّحر ... لأن النفس فيه كالةٌ من تعب النهار ...، فالسَّحر أحسن لمن أراد أن يصنع ... »[59] .

يتضح من هذا النص أن ابن رشيق بما أنه شاعر يحبذ وقت السحر للإبداع الشعري وينصح به المبدعين؛ لأنه وقت تكون فيه النفس مرتاحة، فهي أنسب زمنا لقول الشعر.

إن الإبداع عند ابن رشيق هو قدرة الشاعر على الإتيان بمعنى جديد، وإبداعه على غير نموذج، ويشترط أن تقيد الجدة بملائمة السياق، فليس كل جديد ومبتكر في الخطاب الشعر يعد إبداعا.

والعمل الإبداعي عنده لا يتحقق إلى إذا تضافرت الأسس الفطرية والمكتسبة فما بينها وعملت على بلورة الخطاب الشعر وتحقيق الاستواء فيه، كما اشترط ضرورة إعمال العقل في العملية الشعرية، فهو الوميض الذي ينير للمبدع كيفية الاهتداء إلى عناصر النص وتحقيق التأليف بينها، وتنسيقها وتحقيق التلاؤم فيه.

---

58 – المصدر نفسه ، ص 222.

59 – المصدر نفسه، ص 207.

كما أقر أيضا بوجود بواعث مكانية، وزمانية ونفسية ومادية تثير كوامن الشاعر وتدفعه إلى التعبير عما يختلج في صدره من مشاعر وإحساسات في شكل خطاب شعري يتميز بجودة الصياغة والتأليف .

نستشف من كل ما سبق أن ابن رشيق حاول تفسير عملية الإبداع في الشعر معتمدا في ذلك على ذوقه الفني ومستفيدا من تجربته الذاتية والتمثل الواعي للآراء السابقة واستلهامها وهذا يدل على ثقافته الواسعة، وقدرته الفائقة، ونلاحظ أن ابن رشيق عرض عدة آراء رغبة منه في إقناع المتلق ثم ختمها بعرض رأيه، وذلك لترسية النظرية التي تبناها حول عملية الإبداع في الشعر .

قائمة المصادر والمراجع

1- أحمد بن عبد الله، **كتاب إخوان الصفا وخلان الوفا**، ج2، (مطبعة نخبة الأخبار ، بهنيدي بازار 1305هـ)، ص 265- 266- 267- 268.

2- امرؤ القيس، **الديوان** ، ط2، شرحه عبد الرحمن المصطاوي، (دار المعـــــرفة، بيروت، لبنان،2004م).

3- الحسن بن رشيق القيرواني، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ج1، تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد، (دارالرشاد الحديثة، الدارالبيضاء) .

4- الجاحظ، البيان والتبيين ، ج1، تح: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دت).

5- رينيه ويليك و أوستن وأرين، **نظرية الأدب** ، ترجمة محي الدين صبحي، ومراجعة حسام الخطيب، ط2، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، 1981م).

6- زكريا صيام، دراسة في الشعر الجاهلي، ط2، (ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1993م).
7- شكري عزيز الماضي، **محاضرات في نظرية الأدب** ، (جامعة قسنطينة، 1984م).
8- عز الدين إسماعيل، **الأدب وفنونه- دراسة ونقد** ، (دار الفكر العربي، القاهرة، مصر 1983م)، ص 206
9- القاضي الجرجاني، **الوساطة بين المتنبي وخصومه**،تحقيق أحمد عارف الزين(صيدا، 1331هـ).
10- قدامه بن جعفر، **نقد الشعر**، تح: عبد المنعم خفاجي، (دار الكتاب العلمية، بيروت لبنان، دت).
11- ماجدة حمودة، **علاقة النقد بالإبداع الأدبي** (منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق 1997م).
12 - مصطفى سويف، **الأسس النفسية للإبداع** ، ط3 ، (دار المعارف، مصر ، 1969م).